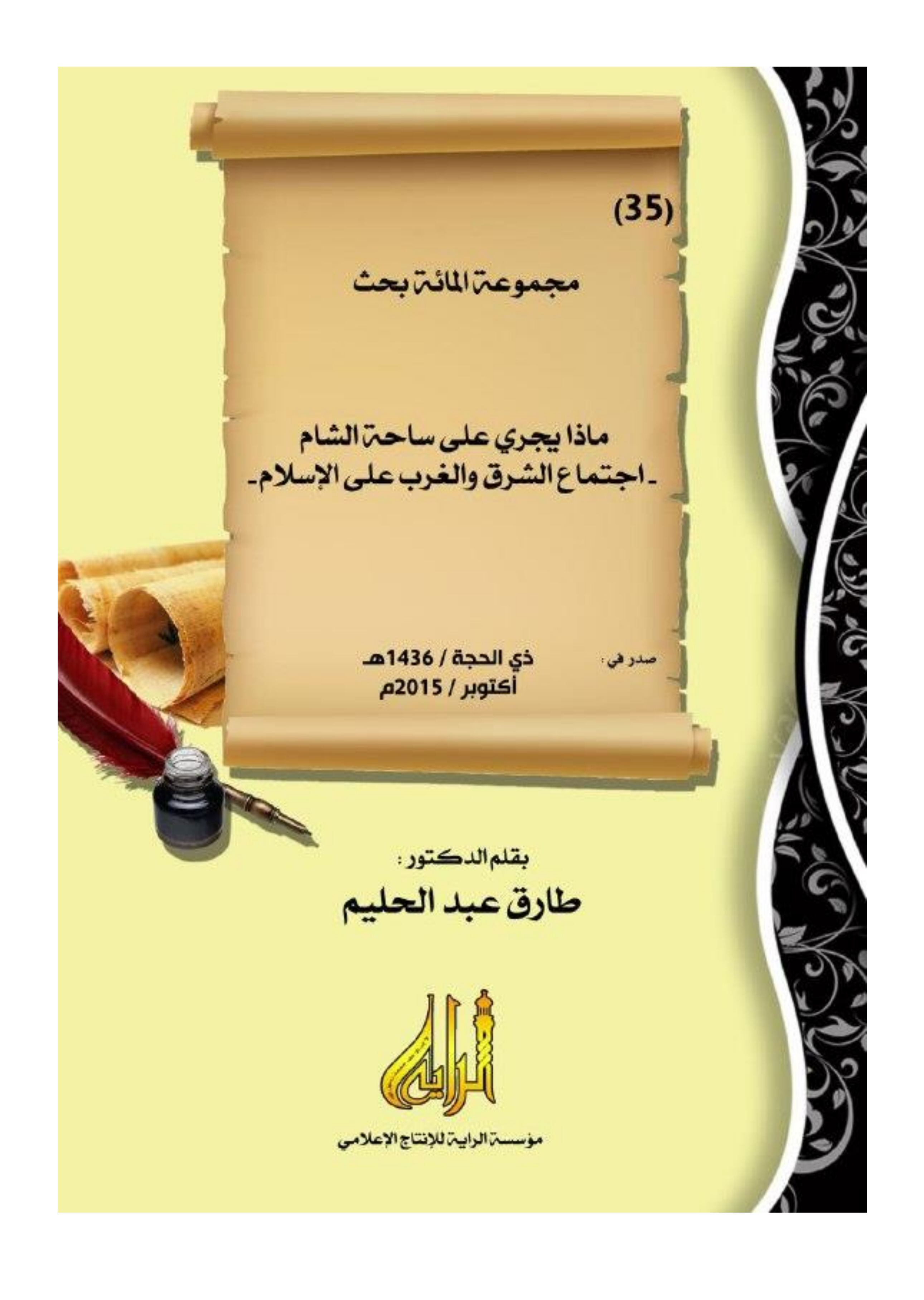


(35)
مجموعة المائة بحث
ماذا يجري على ساحة الشام
- اجتماع الشرق والغرب على الإسلام -
صدر في:
ذي الحجة / 1436هـ
أكتوبر / 2015م
بقلم الدكتور:
طارق عبد الحليم
مؤسسة الراية للإنتاج الإعلامي

ماذا يجرى على ساحة الشام

اجتماع الشرق والغرب على الإسلام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبعد

فإن المتغيرات الأخيرة في الشام تجعل من الواجب المحتّم أن نعيد النظر في أسباب التغير في تركيبة العدو، ثم نختبر صحة النظريات التي طرحها البعض بشأن التدخلات والتحالفات الخارجية، سواء من الشرق أو من الغرب، أو من المحيط الإقليمي، ومن ثم نعيد النظر في الأولويات وترتيبها.

والجديد هنا أنه قد ظهرت في الأسابيع القليلة الماضية القوة الروسية، علناً ودون ستار، على الساحة العسكرية الشامية، بطائرات عديدة، في مطارات عديدة، كما ظهر عدد من أفراد القوات البرية يقاتلون جنبا إلى جنب مع قوات النظام النصيري.

وهذا يعنى تغير أسس اللعبة الدولية في تحديد شكل الشام ومصيرها، كما تريده تلك القوى، شرقا وغرباً.

ودعونا نستعرض القوى المختلفة التي توجد على الساحة العسكرية بالذات، ثم ما يرددونه على الساحة السياسة تبريراً لهذا الوجود. ونسرع بالقول إننا لم نشهد في منطقة بالعالم المعاصر مثل هذا التجمع الضارب من أقصى مشارق الأرض ومغاربها في أي بقعة منذ دخول الحلفاء برلين في نهاية الحرب العالمية الثانية.

أولاً: النظام النصيري: وقد تدهورت قوة النظام سنوات، قبل ظهور داعش، وكان التوجه لدي الغرب هو استبداله ببديل "ديموقراطي" علماني، تبناها في أول الأمر قوات الجيش الحر، الذي كان أساساً يعمل على تحرير سوريا دون التفات للقضية الإسلامية، ومن وجهة قومية. وظهر الائتلاف السوري في جنيف، بقيادات علمانية بحتة. لكن الدعم الأمريكي فشل في هذين الخيارين فشلا ذريعا. فاضطر إلى العودة إلى مصالحة النظام بدلا من وقوع البلاد تحت حكم إسلاميّ، خاصة، وهو لم يقدّر في أول الأمر، مدى المساعدة التي تقدمها له داعش، بعلم أو بغير علم! فأدى هذا إلى أن استعاد النظام أنفاسه، وبدأ محاولات التقرب من الغرب، وهو ما لم يستجب له الغرب في الظاهر، حيث أن للغرب معايير في التعامل مع هذه الأنظمة الإجرامية، باعتبار رأي شعوبهم التي قد تسقطهم من الحكم إن ظهر أنهم يعبثون "بحقوق الإنسان" علناً! فما كان من النظام إلا أن التفت إلى الشرق الشيوعي الروسي.

ثانياً: القوة الأمريكية: استغلت أمريكا ظهور داعش لتخرج من ورطة إسقاط بشار، وفشل الجيش الحر والائتلاف وجنيف على الأرض. واتخذتها ورقة لتبني تحالفاً يقصف القوات السنية أساساً، ويناور في قصف داعش، إذ عرفوا أن إنهاء وجودها يقضى على مبررات خططهم في تقسيم المنطقة. وقد أمروا الجيش

العراقي بأن يتركوا الساحة دون قتال، في الأنبار وصلاح الدين لكي تسيطر عليها داعش، مؤسسين بذلك التقسيم القديم الجديد، بمحو بعض حدود العراق والشام خاصة في الموصل.

لم تنجح أمريكا في إعداد قوى المعارضة "المعتدلة" كذلك، بعد أن حاولت مرات، تدريب ثم إلغاء ثم تدريب ثم إلغاء، حيث وجدوا في بعض الحلات أن المُدَرَبين يعودون بسلاحهم إلى حضن سني في بعض الأحيان، وبعضهم يتساقط كالذباب في أول مواجهة. فكانت في حيرة من أمرها، حتى حسم النظام النصيري الموقف بدعوة روسيا رسميا لغزو البلاد.

ثالثاً: القوي الروسية: حاولت روسيا الوساطة في المسألة الشامية عدة مرات، لكن السعودية والخليج لم يكونا يسمحان لها، حين كانت مصالح أمريكا لا تزال تتوافق مع مصالحهما، أن تتدخل، فهمشوها لمدة طويلة، حتى انقلبت المعادلة في صالح بشار، فخرج أمر التدخل الروسي من أيديهم. وقد تم ذلك على مراحل، رفض تام من الخليج، ثم محاولة تقريب نظر الخليج مع الروس، ثم صمت مطبق حين أقرت أمريكا التدخل الأخير.

والروس قد تدخلوا عسكريا لعاملين، المصلحة الروسية في إبقاء بوابة مفتوحة على البحر المتوسط، من خلال لإبقاء بشار في الحكم، وتقليص الدور الغربي في المنطقة، ثم مفاوضة أمريكا على الوضع الأوكرانيّ، واتخاذ الشام ورقة ضغط.

وقد كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية هم من وضعوا أساس سايكس بيكو، ثم اختفي الدور الروسي عقب ظهور القوى البلشفية في روسيا. لذلك لم يكن لروسيا أن تتخلى عن دورها التاريخي في هذا الشأن.

رابعا: تركيا: وقد كانت تركيا لاعب أصيل في الساحة الشامية، لكنها كانت على الدوام تضرب على وترين، أحدهما العواطف الإسلامية الشخصية من إيواء المهاجرين والعطف عليهم والتصريحات الحكومية شديدة اللهجة، ثم الوتر السياسي المتعلق بضمان عدم قيام دولة كردية على حدودها. وقد اختلفت سياسة تركيا وسياسة أمريكا منذ بدء تنفيذ التحالف الدولي للتدخل في سوريا، إذ رفضت تركيا التدخل إلا بعد إقامة المنطقة العازلة لمنع قيام الدولة الكردية، وصممت على موقفها هذا، مما قارب بينها وبين السعودية والخليج. كما لعبت دوراً في السماح بتسرب الأفراد للداخل السوريّ وتهريب الأسلحة لإسقاط بشار وإحلال نظام ديموقراطي علماني، وهو ما يتناسق مع السياسة الخليجية غير المعلنة. ولو كانت السياسة الخليجية ترغب في أي نظام يمت للإسلام بصلة، ما دعمت السيسي في إنهاء حكم محمد مرسي والقضاء على جميع أطياف الدعاة في مصر، ولما اكتظت سجونها بالدعاة المجاهدين.

ولمّا رأت أمريكا أنّ تركيا لن تكون حليفا صالحا لها، بدأت في التنازل لصالح المنطقة العازلة، والتردد في تدريب قوات المعارضة "المعتدلة" بين الحجب والتنفيذ. حتى جاء قرار النظام بالسماح لروسيا بالتدخل العسكريّ، فحسم دور تركيا، ولم يصبح لها اليوم دورا يمكن تحديده في الحاضر.

خامساً: السعودية وقطر: ومما لا يمكن المحاجة فيه هو عداء هؤلاء الملوك والأمراء للإسلام السنيّ الصحيح، ورغبتهم الأكيدة في الحفاظ على عروشهم، لا لله، لكن لعائلة سعود. والدليل واضح في سياساتهم ضد الدعاة ودعم السيسي وموالاة الغرب منذ عهد أبيهم عبد العزيز موالاة مطلقة غير مشروطة، وكيف لا، وكلّ أموال نفطهم في خزائن أمريكا، أي في بطن يهود؟! وقد رأينا تركهم للحوثيين، رغم كل التحذيرات التي أطلقها المخلصون، حتى طرقوا أبوابهم الجنوبية، واحتل الصفوية العراق على حدودهم الشمالية، بينما هم في شُغُلٍ يتأمرون للقضاء على الإخوان، أضعف خلق الله إنسانا!!

وقد أرادت تلك الملوك والأمراء القضاء على بشار، لا لأجل كونه نصيري، بل لأنهم رأوا التمدد الرافضي من حولهم، فلابد من أن يجدوا ما يخلصهم من النصيرية حتى لا يتم اكتمال الهلال الرافضي بالعراق وسوريا ولبنان، التي يحتلها حزب اللات الرافضي.

ثم جاء التقارب الإيراني الأمريكي، والاتفاق النووي، فوضعت أمريكا هؤلاء في قمقم، ليس لديهم قدرة على دعم المجاهدين، إلا ما يتسرب من مشايخ قلة من أنصار بعض المجاهدين الخليجيين في الشام بشكل شخصيّ. لكن الدور السياسي لهؤلاء قد حسمه التدخل الروسيّ، إلا أن يتنازلوا بأن يوالوا روسيا ويمدوها بمال وتسلط في المنطقة، كبديل لبشار، وهو ما نشك فيه أشد الشك. ومن الظاهر أنّ الخطة السعودية بخفض أسعار النفط لإضعاف روسيا وإيران لم تأت أكلها.

سادساً: إيران: والدور الرافضي الإيراني لا يحتاج إلى تحليل، فهؤلاء يتحركون من منطلق ديني رافضي لإعادة الإمبراطورية الصفوية وإسقاط كافة ما يمثل السنة، ولو ظاهراً كالسعودية. وأذرعتهم ممتدة في العراق بشكل هيمنة شبه كاملة، وفي لبنان من خلال حزب اللات، الذي مُنِّيَ أخيراً بهزائم أدت لمفاوضات الفوعة وكفريا. لكن عين الروافض على الأرض السنية كلها بلا استثناء، من اليمن عبر السعودية إلى الشرق العربي كله.

وقد مكن الاتفاق النووي الإمريكي المجوس من ضمان عدم اعتداء أمريكي في مناطق نفوذهم، وهو ما نتوقع أنه من بنود الاتفاقية بشأن وجودهم في العراق والشام.

سابعاً: داعش: وداعش هي الجماعة المحورية التي قامت عليها الترتيبات من جميع القوى ذات الوجود العسكري والسياسي في الشام.

وحقيقة قيام داعش تتلخص في جماعة مدعومة من القاعدة، يتولى أمرها أبو عمر البغدادي، ثم يتم ترشيح أبو بكر البغدادي ليكون أميراً لها، في لحظات غفلة، بعد التودد لقادة القاعدة. والشاهد أن أبا بكر البغدادي لا يمكن أن يكون وراء تنظيم داعش من الأساس، فالرجل معروف بقلة الذكاء وانعدام الخبرة الجهادية، إذ لم يحارب في أي مكان في مواضع الحروب الإسلامية، بل كان حتى عام 2006، حين كانت العراق أتون حرب، عاكف على دراسة القراءات للحصول على شهادة! فالرجل ليس لديه خبرة ولا سابقة، وهذه حقيقة لا مراء فيها. كذلك ساعده الأيمن ومتحدثه الرسمي، أبو محمد العدناني السوري، بل أقل قدرا في العلم

والخبرة. فهذه الشخصيات لا تقدر، طبعاً ولا وضعاً، على إقامة كيان بحجم داعش، بل كان الاختراق البعثي من اللحظة الأولى من وراء هذا التنظيم، عبر حجي بكر ضابط المخابرات السابق، وأبو على الأنباري الضابط السابق في جيش صدام. واستغل البعثيون سذاجة البغدادي وأتباعه وتستروا من وراء مسوح الخلافة وستار الإسلام، بالمذاق الحروري التكفيري الإجرامي، ليقيموا ما أسموه دولة، هي، كما سنرى، ما كانت عليه خريطة سايكس بيكو الأصلية قد رسمتها بالضبط!

وقد خدمت داعش المصالح الغربية في كلّ خطوة خطوها، ومن ثم كانت المكافأة أن قوات التحالف قصفتها قصفا متحنناً لا أثر له، كما أنهم تواطئوا مع النظام لتحديد ما أرادوا من أرضٍ بالحرب بجانبهم ضد بقية مجاهدي الشام، كما حدث في الشرقية وحلب وغيرها، كما قتلوا كثيراً من أهل الخبرات القتالية ليكسروا شوكة مقاومة النظام. فالعمالة البعثية-الغربية واضحة في تصرفات داعش وضوح الشمس.

ومن الجديد الجدير بالذكر، والجديد هنا، هو أن الحدود التي كانت قبل تدخل داعش البعثية، لا دخل لها باتفاقية سايكس بيكو أساساً، إذ العراق وسوريا موجودان على خريطة الدنيا منذ خلق الله الخلق، من ناحية، لكن من ناحية أخرى لأن أصل اتفاقية سايكس بيكو لم يكن ما هو موجود حاليا على الأرض مما تكون من بعد عام 1926! فمثلاً في تقسيم سايكس بيكو الأصلي عام 1917 لم تكن الموصل ضمن "العراق" بل ضمن شمال سوريا (انظر الخريطة). فالعراق الحاليّ قد كونته قوى محلية ومواجهات أدت لهذه الخريطة[1]. وبهذا تكون داعش قد كرست خريطة سايكس بيكو الأصلية. بل في حقيقة الأمر، أحيتها بعد موتها، لا حطمتها، ولكن الكذب والخداع آفة. ومما يدعو للإستغراب أنه لم يلتفت أحدٌ إلى خريطة اتفاقة سايكس بيكو التي لم تتم على الأرض في حدود العراق وسوريا على الإطلاق حتى نفذتها داعش!

ولو كانت داعش تريد تحطيم سايكس بيكو، لاتجهت للغرب حيث سلخ الغرب لبنان والأردن وفلسطين، التي أصبحت كيانا صهيونيا، من الشام، لا أن يتجهوا إلى العراق حيث لا سايكس بيكو أصلاً!! لكنهم كانوا يريدون دويلة بعثية عراقية لها مقر في سوريا، وأصاب هذا الغرض هوى الغرب من حيث يمكن أن يتخذونه أساساً ومبرراً لإعادة التقسيم كما أشرنا.

ثامناً: القوى والجماعات السنية: وهؤلاء يتمثلون بدرجات إلى السنة، النصرة ثم الأحرار ثم الجبهة الإسلامية ثم مئات الفصائل التي تعمل في الساحة، تحت أسماء لا حصر لها.

---

[1] “Lines Drawn on an Empty Map: Iraq’s Borders and the Legend of the Artificial State” by Sara Pursley, Part 1 & 2 , http://www.jadaliyya.com/pages/index/21759/lines-drawn-on-an-empty-map_iraq%E2%80%99s-borders-and-the University of Princeton”. Also see “Is Iraq An Artificial State? Princeton's Sara Pursley” By Joel Wing http://www.realcleardefense.com/articles/2015/07/07/is_iraq_an_artificial_state_interview_with_princetons_sara_pursley_108189.html

ولا داع هنا لمناقشة كيفية نشأتها، إذ هي معروفة للكلّ، ولا ما يتردد من بعض مظالم تخصّ بعضها كما مع النصرة، ولا ما ادعاءات الانحراف عن السنة والبعد أو القرب عن "المنهج"، فهي ادعاءات عريضة تحتاج إلى تفصيل. لكن سننظر في سياساتها على الأرض، المرتبطة بأيديولوجيتها، إن شاء الله

1. جبهة النصرة: التزمت النصرة منذ نشأتها بمبايعة للقاعدة من خلال مبايعة البغدادي، الذي ظهر لاحقا إنه قد خان البيعة ونزع صفقة اليد، ليتمكن من السلطة بتوجيه البعثيين. وظلت النصرة على بيعتها للقاعدة، رغم مناداة عدد من الفصائل مثل الأحرار والجيش الحر على نقضها.

ووجهة نظر النصرة، كما أحسبها، تتلخص في إنه لم يأت جديد في تصرفات القاعدة وأمرائها لتبرير نقض البيعة، فهو عمل حرام أصلاً. ثم إن وجهة النظر المصلحية التي اتخذها الغير، ليست حقيقية، بل هي مصلحة متوهمة، ومن شروط اعتبار المصلحة المرسلة التي تناقض نصاً، في مناطٍ معين كاستثناء من قاعدة، أن تكون حقيقية لا متوهمة، وآنية لا آجلة. كما أنّ في الإبقاء على الارتباط قوة للنصرة، لولاها ما استمرت حين دخل البعثيون العوادية إلى الشام، وضعفت النصرة إلى حدٍ كبير. فالأخ الأكبر دائما له ثقلٌ معنويّ، خاصة أنّ العدو سيضرب على أيّ حال من الأحوال.

وقد رأينا فيما تقدم كيف أنّ السياسة الأمريكية لها هدف واحد، هو وجود نظام علماني بالدرجة الأولى يحكم المنطقة بعد إعادة تقسيمها، دون إصرار على موضوع الديموقراطية، كما فعلت مع السيسي، سواء كان حكم بشار أو غيره. فهي براجماتية بالدرجة الأولى.

ويخطأ من يحسب أن أمريكا ترسم الطريق للأحداث لتقع على هواها، لا، هذا تأليه لتلك الدولة المتوحشة على البشر. إنما هي ترصد عن قرب كل التطورات، وتعجل بتغيير سياساتها، بعض الأحيان يومياً حسب ما يقع على الأرض، كما رأينا في حالة تدريب المعارضة من تخبط وتبديل أسبوعيّ!

فتلك السياسة الأمريكية تحكم النتائج، ولا تصنع الأسباب، إلا في نطاق محدود، وإلا كانت إله يُعبد، حاشا لله. وهي تسيطر على السياسة الخليجية والسعودية سيطرة شبه تامة، فلا يخرج منهم إلا بعض "حشرجات انزعاج" حين تكون الضربة موجعة، مثلما حدث في قرارها لجعل بشار جزء من الحلّ في مبادرة دستيمورا. لكن لا خروج جِديّ عن النص.

ومن ثمّ، فالولايات المتحدة لا تمانع في إبقاء السعودية في رعب دائم، تستنزف قواها ومالها، كما نرى في خفض أسعار النفط، حيث المستفيد الوحيد هو أمريكا والغرب.

أحرار الشام: وهذه الجماعة تأتي من بعد النصرة، قرباً إلى السنة، من حيث إنهم لم يقبلوا بتنازلات وإن أقدموا على المفاوضات، تحسينا بالظن فيمن يتصل بهم من الأتراك والخليجيين، ويهيأ لهم أن الارتباط بالقاعدة أمر مدمّر للساحة، وأن نقضه من قبل النصرة شرطٌ لتلقى الدعم المادي والحل السياسي الذي يكون الأحرار عموده، مع عدم الوقوف في وجه تطبيق الشريعة، بدرجة ما، استصلاحا للناس.

وفي ضوء ما قدمنا مسبقاً، فإن هؤلاء لم يعوا أن أولئك الأفراد الذين يأتونهم للتفاوض، ما هم إلا أعضاء في فريق "إدارة الأزمات" في وزارات خارجية الدول الغربية، ومنها تركيا. وهذا الفريق فيه أفراد مهمتهم الاتصال بالفرقاء المختلفة، وتصوير الأمور على أنه هناك تطور لقبول الآخر، لكن بشرط كذا وكذا .. وأنّ هذا في الصالح العام. ولا يعلمون أن هذه التفاوضات لا تتجاوز حقائب يد حامليها إلى أي صانع قرار بالمرة. هذا هو ما يجعل أمر التحالفات والمفاوضات والدعم أمر مضحك مبكى في آن واحد. فقد ظنت "قيادات الأحرار أنهم أذكى من غيرهم، وأوعى بالسياسة الخارجية، وهم لا شك أذكياء فضلاء، فقرروا خوض هذا المعترك، دون خبرة حقيقية ووعي كامل وتحليل دقيق.

ومن الواضح الآن لأي ناظر مبتدئ أن هذه الأمور قد تبخرت وصارت سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا بلغه لم يجده شيئا، وذلك لأنه لم يكن شيئا ابتداء في يوم من الأيام.

الجبهة الإسلامية وجيش الإسلام: وارتباط هذه الجماعة بالسعودية ليس حدثا قريبا، أو مصلحة يسعون اليها، بل هو انتماء عضويّ كعلاقة الأم بوليدها. وهذا ما يجعل خروجها عن الفلك العام للسعودية أمر في غاية الصعوبة، كما أن السعودية لا يمكنها الخروج على السياسة الأمريكية العامة بالتمام.

والفرق هنا أنّ الدعم الماليّ الذي يأتي لجيش الإسلام هو من قبل الجهات الحكومية والاستخباراتية، أما الدعم لسابقتيها فهو من قبل شخصيات فردية لا أعتقد أن للحكومات الخليجية يد فيها، خاصة والنصرة على قائمة الإرهاب، والأحرار لم يتبين ولاءهم التام بعد، إلا في ميثاق الشرف السوري ثم تلك المسودة الساقطة، التي أنكرتها بعض جهاتهم.

تلك هي القوى العاملة على الساحة السورية، ، داخلياً وخارجياً، وهذا هو موقفها، **اليوم**، مع تجاوز عدد من الفصائل ذات الثقل المحدود مثل صقور الشام وجند الشام ومئات غيرهما. ويعلم الله ماذا سيأتي به الغد. فالعدو يخطط ويمكر لكن الله من ورائهم محيط.

الدين النصيحة

وحتى لا يكون تحليلنا هباء في الهواء، فإنني أقترح بعض التصورات والحلول في هذا المأزق التاريخي

أولاً: أن تنسى أحرار الشام موضوع التحالف وأن تنقض ما جاء في ميثاق الشرف الخاسر، وأن تعود إلى أخوانها في النصرة، ليكونوا يدا واحدة، إما بقيادة واحدة، فإن ضعفت النفوس، فبقيادة واحدة مشتركة مع بقاء الكيانين منفصلين، كما في الحكومات الفيدرالية.

ثانيا: أن تحسم النصرة أمرها فيما يُنسب اليها من خلاف داخليّ حول السياسة العامة، كما نبهنا عليه سابقا. ثم أن تعمل على رفع المظالم على الفور، لا بأبحاث مكتوبة بل بتربية ومواجهة للظالم ومعاقبة للمسئ، فإنما ينصرهم الله بالحق والعدل، وإلا فهم إلى زوال قريب.

ثالثا: أن يكون هناك اشتراك على مستوى عسكريّ مع الجبهة الإسلامية وجيش الإسلام والجيش الحرً، للتنسيق والتعاون الكامل من أجل إسقاط بشار، وإفساد العدوان الروسي والقضاء على أس البلاء الحرورية العوادية، فإنهم كانوا المعول الذي ضربت به اليد الأمريكية المنطقة كلها.

وقد خرجت صيحات حماسية أنّ الشام ستكون مقبرة للروس كما كانت أفغانستان. ومرة أخرى، فإن هذه الصيحات تخرج من قلوب مخلصة لا من عقول مفكرة. فإن طبيعة الحرب الروسية في أفغانستان تختلف عن الشام، والغرض ليس قهر نظام، بل دعم نظام بتحجيم العدو، فالمواجهة أقل بكثير إذن. ولن يكون للروس تواجد كثيف بقوات برية، بل سيعين بجدية، لا كما في سياسة أمريكا المترددة، على وقف الزحف السنيّ، وترك داعش مستقرة تحمى تلك الأراضي التي تسيطر عليها من العدو المشترك لها وللغرب والشرق، وهي قوات المجاهدين السنة في سوريا.

والله المستعان على ما يصفون، ومكروا ومكر الله

د طارق عبد الحليم

1 أكتوبر 2015 – 7 ذي الحجة 1436